

## الفصل الرابع التعقيد في التصنع

أراني في السلاطة من سجون  
لفقدى ناظري ولزوم بيتي  
فلا تسأل عن الخير النيث  
وكون النفس في الجسم الخبيث  
( أبو العلاء المعري )

١

أبو العلاء : نشأته وحياته وثقافته

رأينا الشعر عند مهيار يصبح ضرباً من التلفيق الخالص ، وكأنما جمد الشعر العربي وأصبح من الصعب أن يتحول إلى طرائف جديدة إلا ما رأينا عند المتنبي من تصنعه لصيغ الثقافات المختلفة وما يَطوى هذا التصنع من تعقيد . ونحن لا نمضي بعد المتنبي إلى النصف الثاني من القرن الرابع ثم القرن الخامس حتى نجد شاعراً شامياً يبلغ بهذا التعقيد غايته ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعروف باسم المعري نسبة إلى « مَعْرَةَ النعمان » وهي بلدة بين حلب وحمّات ، وكان يُكنى أبا العلاء ، وذكر ذلك في شعره إذ يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيِّنٌ ولكنَّ الصحيح أبو النزولِ

وقد ولد أبو العلاء سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ولم يبلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علّة الجدرى التي ذهب فيها بصره . وأشار إلى ذلك في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة ، إذ يقول : « وقد علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الإبصار كليل ، وقضى عليّ وأنا ابن أربع ؛ لا أفرّق بين البازل والرُبْع » (١) وكان يقول : « لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنني ألبست في الجدرى رِيّ ثوباً مصبوغاً بالعُصْفُر ، لا أعقل غير ذلك » (٢) .

(١) معجم الأدباء لياقوت ( طبعة مرجليوث ) (٢) بغية الوعاة للسيوطي ( طبع مطبعة السعادة )  
١٩٨/١ والرُبْع : الفصل ، والبازل : البعير ص ١٣٦ .  
في تاسع سنه .

وقد خرج أبو العلاء من بيت علم وشعر وقضاء ، فأبائه كانوا يتولون قضاء المعرة ، وتحدث عنهم ياقوت في ترجمته له حديثاً مستفيضاً ، ذكر لهم فيه طرفاً من أشعارهم . وكان لهذا الميراث العلمي أثره في تربية المعري ، إذ جعله يميل للبحث والدرس ، وأيضاً فإن فقدَ بصره حدد موقفه، وجعله يطلب العلم ويُشغَفُ به، وبدأ أبو العلاء بهذا الدرس والتحصيل في المعرة ، إذ تلمذ على أبيه ومن في بلدته من تلامذة ابن خالويه . يقول القفطي : « ولما كبر أبو العلاء ووصل إلى سينَّ الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده كبنى كوثر ومن يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقبَّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك، فرحل إلى طرابلس الشام وكانت بها خزائن كتب وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ونزل دير الفاروس ؛ وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به، فعلق بخاطره ما حصل به الانحلال وضاق عَطْسُهُ عن كتمان ما تحمَّله من ذلك حتى فاه به في أول عمره وأودعه أشعاراً له » (١) .

وقد يكون القفطي ألتى بخبر لقاء أبي العلاء لراهب دير الفاروس دون تبيُّت ، تعليلاً لأبيات وضعت على لسانه ، وليست في اللزوميات ولا سقط الزند تجرى على هذه الصورة :

في اللاذقية فتنةٌ ما بين أحمدَ والمسيحِ  
هذا بناقوس يدقُّ وذا بمثذنة يصيحُ  
كلُّ يعزُّزُ دينهُ يا ليت شعري ما الصحيحُ

ويظهر من اللزوميات أن أبا العلاء كما درس العلوم اللغوية والشرعية درس المسيحية واليهودية في أثناء تطوافه بالشام وأدياره . ولما بلغ الثلاثين سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين (٢) . وفي

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء، (طبع دار

(٢) الحضارة الإسلامية ١١٠/٢ .

الكتب) ص ٣٠ .

سنَّ السادسة والثلاثين رحل إلى بغداد؛ ولقى علماءها من أمثال الربيعي والواجكا والسُّكْرِيَّ والمرْتَضَى<sup>(١)</sup>، وقد لقيه الأول والأخير لقاءً سيئاً، وفارقها وهو يقول:

رحلتُ فلا دُنْيَا ولا دِينَ نَلِيتُهُ      وما أُوْبَيْتِي إِلَّا السَّفَاهَةَ والخُرْقُ

ولما عاد إلى المعرة التزم ثلاثة أشياء: «نبذة كنبذة فتيق النجوم وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة<sup>(٢)</sup> من القوب وثباتاً في البلد إن حال أهله من خوف الروم»<sup>(٣)</sup>. وسَمَّى نفسه (رهين المحبسين) يعني حبس نفسه في المنزل، وحبس بصره عن الرؤية<sup>(٤)</sup>. ومكث في هذين المحبسين نحو خمسين عاماً أَلَّفَ خلالها تلك الكتب الكثيرة التي رواها له ياقوت في معجمه، وهي تدل على أنه كان واسع الثقافات سعة شديدة، فهو يعرف الديانات والمعتقدات المختلفة كما يعرف الفلسفة والتنجيم والتاريخ والتصوف. وما يُطوى في ذلك من ثقافات يونانية وفارسية وهندية، وعنى عناية خاصة بالثقافة اللغوية فألَّفَ في النحو والعروض، وتصنع للغريب في جميع آثاره. وليس من المبالغة أن نزعم أنه كان إماماً ممتازاً من أئمة اللغة فليس هناك شاذة لغوية إلا وهو يعرفها ويسلكها فيما يكتب من نثر أو نظم، وكان السابقون يلاحظون مهارته في هذا الجانب، فالصفدي يعدد من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة. ويقول التبريزي: «ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري» وكانوا يقرنونه إلى ابن سيده اللغوي المعروف. ويقولون: «كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد لم يكن لهما ثالث وهما أبو العلاء وابن سيده»<sup>(٥)</sup>. وحقاً أن أبا العلاء كان مثقفاً ثقافة لغوية واسعة، وكان يضيف إليها هذا الخليط المضطرب من ثقافته الكثيرة وخاصة ما اتصل بالثقافة الفنية من الشعر إذ كان يُعنى عناية شديدة بجمع الأفكار والصور

(١) تعريف المقدمة بأبي العلاء ص ٥١٥ . (٤) معجم الأدباء ١/ ١٧٠ .

(٢) القائبة: الفرخ. القوب: البيض . (٥) انظر في هذه النصوص كتاب (أبوالعلاء.

(٣) رسائل أبي العلاء (طبع مرجليوث) ص ٣٤ . وما إليه للراجكوتي .

القديمة وحشدها في أشعاره وكتاباتة على نحو ما نرى في الفصول والغايات واللازميات، وكأنه كان يؤلف شعره للمتقنين خاصة فهو يجمع لهم فيه كل ما يعرفونه من ضروب الثقافات وألوان المعرفة، وخاصة المعرفة الفنية وما يطوون فيها من صور غريبة ولفظ غير مأروف حتى يستولى على أفئدتهم بهذه الطرائف النادرة التي كانت تُعدُّ بدءاً جديداً في هذه العصور ، والتي كان الناس والتقاد يقيسون بها مهارة الشاعر وإبداعه .

## ٢

## ذكاء أبي العلاء وحفظه

كان أبو العلاء ذكياً ذكاءً شديداً سريع الخاطر دقيق الحس حتى ليروى المصبيى الشاعر أنه كان يلعب بالشطرنج والرد<sup>(١)</sup> ! ! . وروى الرواة أن أبا محمد الخفاجى الحلبي دخل عليه وسلم ولم يكن يعرفه ، فردّ عليه السلام وقال : هذا رجل طوال ، ثم سأله عن صناعته فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ على شيئاً منه فقرأ عليه عَشْرًا ، فقال له : أنت أبو محمد الخفاجى الحلبي؟ فقال نعم ، فسُئل عن ذلك ، فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فإننى سمعت بحديثه<sup>(٢)</sup> . وذكر القيفطى أنه كان له سرداب إذا أراد الأكل نزل إليه وأكل مستتراً، ثم يقول : إنه نزل إليه يوماً وأكل شيئاً من رُبٍّ أو دِيس<sup>(٣)</sup> ونقط على صدره منه يسير وهولا يشعر به ، فلما جلس للإقراء لمح بعض الطلبة فقال : يا سيدى أكلت ديساً فأسرع بيده إلى صدره ومسحه وقال نعم ، لعن الله النههم ، فاستحسن منه سرعة فهمه بما على صدره ، وأنه الذى أُشعر به<sup>(٤)</sup> . وليس من شك في أن هذا كله يدل على أن أبا العلاء كان مرهف الحس إرهافاً شديداً ، وهو إلى

(١) تمّة اليتيمة للعلابى ص ٤ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥ . (٤) المصدر نفسه ص ٣٧ .

(٣) الرب : عصارة بعض الثمار . والدبس :

ذلك كان سريع الحفظ أيضاً سرعة شديدة . روى ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار أنه لما دخل بغداد أرادوا امتحانه فأحضروا دستور الخراج الذي في الديوان وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة ، وهو يسمع إلى أن فرغوا ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه<sup>(١)</sup> . ويروى القفطي أنه كان يحفظ ما يمر بسمعه « وأن رجلاً من اليمن وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه فكان يحمله معه ويحج ، فإذا اجتمع بمن فيه أدب أراه إياه وسأله عن اسمه واسم مصنّفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره ، واتفق أن وجد من يعلم حال أبي العلاء فدلته عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ووصل إلى المعرة واجتمع بأبي العلاء وعرفه ما حاله ، وأحضر الكتاب وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئاً ، فقرأ عليه ، فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ومصنّفه فلان ، ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل ، فنقل عنه النقص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة ، وانفصل إلى اليمن فأخبر الأديباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو ديوان الأدب للفارابي اللغوي ، وهو مضبوط على أوزان الأفعال<sup>(٢)</sup> . »

كان أبو العلاء قوى الحافظة - على ما يظهر - قوة شديدة ، وكان لا يُقرأ عليه كتاب إلا حفظ منه أطرافاً حتى ليروى الرواة أنه لما ذهب إلى بغداد طلب أن تُعرض عليه الكتب التي في خزائنها فكان كلما قُرئ عليه شيء حفظه ، وهم يروون أنه كان يحفظ المحكم والمخصّص وأنه أملاهما من صدره<sup>(٣)</sup> ! ! . ولا تقف القصص بحفظ أبي العلاء عند نصوص اللغة العربية وكتبتها ، بل إنها لتمتد فتزعم أنه كان يحفظ ما يسمعه بين رجلين بالفارسية أو بالأذربية<sup>(٤)</sup> . وربما كان كثير من هذه القصص مبالغاً فيه ولكنها مع ذلك تدل على أن الرجل اشتهر في عصره بجدّة الذكاء وسرعة الحفظ . يقول ابن العديم : « كان أبو العلاء

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣ ،

٢٢٥ .

(١) تعريف القدماء ص ٢٢٦ .

(٢) تعريف القدماء ص ٣٣ .

(٣) النور السافر للعبدوسي (طبع بغداد) ص ٤١٢ .

على غاية من الذكاء والحفظ ، وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته (١) .

## ٣

## اللزوميات وتشاؤم أبي العلاء

بدأ أبو العلاء حياته الفنية في الشعر بتقليد المتنبي إذ كان يتعصب له تعصباً شديداً (٢) . وسقط الزند هو خير ما يفسر هذا الطور من تقليده إذ نراه ينظم على طريقة المتنبي السابقة ، فهو يعتدُّ بالغريب والشاذ في التراكيب ، كما يعتد بالتصنع لألفاظ الثقافات المختلفة والتغنى بالفيافي والحكم والأمثال والفخر بنفسه وذم الدهر والشكوى منه على نحو ما رأينا عند المتنبي ، إذ كان يردد جميع النغم الذي سمعناه عنده . وكان لا يضيف إلى ذلك جديداً إلا عنايته الواسعة بالجناس . وما يزال أبو العلاء على هذه الحال من التقليد حتى يتبين نفسه فيستقل عن المتنبي ويؤلف لزومياته ، وهي من طراز جديد إذ نراها تتضمن نقداً للحياة الاجتماعية مع دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض الدنيا ، يسوده في ذلك كله تشاؤم واسع ، فالحياة كلها آلام ونصب وعذاب . وكان الشعراء قبل أبي العلاء يعنون بهذا الجانب وخاصة أبا العتاهية والمتنبي ، أما أبو العتاهية فله مقطوعات كثيرة في ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها لأنها دائماً مشوبة بالأكدار ، وأما المتنبي فقد أشاع في ديوانه - وأكثره مديح - ضرباً واسعاً

(١) تعريف القنماء بأبي العلاء ص ٥٥١ .

(٢) كان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام ، وكان يسمى كل شاعر باسمه فإذا قال الشاعر فقط عرف أنه يريد المتنبي ، ونحن نعرف قصته في بغداد مع المرتضى فقد تنقص المتنبي يوماً فاعترضه أبو العلاء وقال له : لو لم يكن للمتنبي من الشعر =

إلا قوله ( لك يا منازل في القلوب منازل ) لكفاه فضلاً فنضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه ، وقال لمن بحضرته أتدرون أي شيء يريد بهذه القصيدة فلم يجب أحد فقال يريد قول المتنبي فيها :

وإذا أتتك مذمى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

انظر في ذلك معجم الأدباء لياقوت ١/١٦٩ .

من التشاؤم يعمه نقد شديد للحياة الاجتماعية ؛ وبيان لما في الدنيا من آلام وتفكير في حقائق الحياة والموت . وليس من شك في أننا إذا أردنا أن نبحث عن أصول الأفكار في اللزوميات وجدناها جميعاً عند المتنبي على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وإذن فموضوع اللزوميات ليس جديداً وما نرى فيها من تشاؤم ودعوة إلى الزهد في الحياة وسرد للحكم والعظات ، كل ذلك ليس جديداً خالصاً ، فقد وُجد قبل أبي العلاء ، غير أن من الحق أن نشهد بأنه كبيره ووسعه واستطاع أن يخرجها في ديوان خاص به يؤلفه على الحروف الهجائية ، ويملؤه بهذا التشاؤم الواسع وما ينطوي فيه من وصف للدنيا بأنها دار آلام وعذاب ؛ وقد ذهب يستعرض الحياة فيها من جميع جوانبها وينقدها نقداً ساخراً في جرأة وصراحة صريحة كأن يقول في نقد الحياة السياسية :

وأرى ملوكاً لا تحوط رعيّةً      فعلامٌ تؤخذُ جزيةً ومكوسُ

أو يقول في نقد حكام عصره :

يسوسون الأمورَ بغير عقلٍ      ويتنفذُ أمرهمُ فيقال سأسه

فأفّ من الحياة وأفّ مني      ومن زمنٍ رياسته حساسه

أو يقول :

مُلّ المّقامُ فكمّ أعاشرُ أمّةً      أمرتُ بغير صلاحها أمرأوها

ظلموا الرعيّةَ واستجازوا كيدَها      فععدوا ومصالحها وهم أجبرأوها

فإذا ترك الحياة السياسية نظر في الحياة العامة للناس وما يسودها من رياء ونفاق وما يعمها من حب للمادة ، وما ينطوي فيها من شر ، فإذا هو ساخط على الدنيا والناس من حوله سخطاً شديداً ، وإذا هو ينقلب عليهم حنقاً مغيظاً يذمهم ويذم الدنيا معهم ذماً شنيعاً ، كأن يقول :

يحسُنُ مرأى لبيّ آدمٍ      وكلهمُ في الذوق لا يعذبُ

أفضلُ من أفضلهم صخرةٌ      لا تظلمُ الناسَ ولا تكذبُ

أو يقول :

لعمرك ما الدنيا بصدار إقامة  
وإنَّ وليدًا حَلَّتْهَا الْمُعَذِّبُ  
ولا الحىُّ في حال السَّلَامَةِ آمِنُ  
جرت لسواهُ بالسعودِ أيا مَنُ

أو يقول :

عجبتُ للأمِّ لما ماتَ واحدُها  
هُمُّ أَسَارَى مَنَابِهْمُ فَا لهُمُ  
بكتُ وساعدها ناسٌ يبكُونَهُ  
إذا أتاهم أسيرٌ لا يَفْكُونَهُ

أو يقول :

نَمْسِي وَنُضْحِي فِي ضَلَالَاتِنَا  
فَنَسْأَلُ الْوَاحِدَ إِنْقَادَنَا  
وما على الغبراءِ إلا سَفِيهِ  
من عالمِ السوءِ الذى نحن فيه

أو يقول :

خَسِيتُ يَا أُمَّنَا الدُّنْيَا فَأَفَّ لَنَا  
وعلى هذا النمط استمر أبو العلاء يهاجم هذا العالم بكل ما فيه ، فقد كان يترأى له في صورة حمقاء منكرة ، وتمادى به تشاؤمه فهجا آدم وحواء والناس جميعاً :

إنَّ ما زتِ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يَعِاشُ بِهَا  
أو كان كلُّ بني حوَّاءِ يُشْبِهُنِي  
فلإنهم عند سوء الطبع أسواءُ  
فبئس ما ولدتُ للناسِ حواءُ

وكان لحواء وبناتها حظ واسع من هذا الهجاء ، فهنَّ أصل هذا البلاء في الأرض وأصل هذا النسل الذى يعيش في دار النحس والشقاء :

فليت حَوَّاءُ عَقِيمًا غَدْتُ  
لا تلدُ النَّاسَ ولا تَحْبِلُ

بل ليت الناس يمتنعون عن النسل والزواج حتى يتحطم هذا العالم الذى يسير هذه السيرة العرجاء في توزيع الحظوظ والأرزاق :

لو أنَّ كلَّ نفوسِ النَّاسِ رَائِيَةٌ  
لَعَطَلُوا هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا وَلَدُوا  
كرأى نفسٍ تناهتُ عن خَطَايَاها  
ولا اقتنوا واستراحوا من رَزَايَاها

إذن ما قام هذا العالم الفاسد ، الذى لا يستطيع أبو العلاء أن يفهم له

نظاماً ! إنه شر خالص ! وليس لهذا الشر من دواء إلا أن يتحطم فنستريح الراحة الكبرى ، فإن لم يتحطم هذا العالم من نفسه فلنحطمه نحن بأيدينا هذا التحطيم السليبي ، فنعطل الزواج والتناسل، ولعله من أجل ذلك كان يهاجم المرأة هجوماً عنيفاً ، كأن يقول :

ومن صفات النساء قداماً أن لسنّ في الودّ منّصفت  
وما يبين الوفاء إلا في زمن الفقد والوفاة  
أو يقول :

ألا إنّ النساء حبالٌ غمّيّ بهنّ يُضيعُ الشرفُ التليدُ

ويستمر أبو العلاء في ترديد هذا السخط على الحياة والناس الذين يحيون فيها من رجال ونساء . والإنسان لا يتابعه في لزومياته حتى تكثر في سمعه هذه الأنعام التي تدل على أنه مغيظ من الناس جميعاً غيظاً شديداً ، فهو حتى عليهم ضيق بهم وبكل شيء فيهم حتى تقواهم ودينهم :

نادت على الدّين في الآفاق طائفةٌ  
جنتوا كبائر آثامٍ وقد زعموا  
ويقول في بعض الوعظ والنسك :

وأنت عيّن الظالم اللاهي  
مدُنيا وما همك إلا هي  
بِخَيْفَةِ اللهِ تَعَبَدْتَنَا  
تَأْمُرْنَا بِالزَّهْدِ فِي هَذِهِ

ويقول :

توهّمت يا مغرورُ أنّك دينٌ  
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً  
على يمين الله ما لك دينٌ  
ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدينٌ

ويقول أيضاً :

سَبَّحْ وَصَلِّ وَطُفْ بِمَكَّةَ زَائِراً  
سَبْعِينَ لَا سَبْعًا فَلَسْتَ بِنَاسِكٍ

وكما يهاجم الوعظ والنسك وغيرهم من علماء الدين يهاجم المتصوفة أيضاً هجوماً عنيفاً ، وكان يسخر خاصة من الرقص الذي شاع بينهم في عصره على

نحو ما نعرف الآن في حلقات الذكر . يقول :

تزيَّوْا بالتصوِّف عن خداعٍ      فهل رزَّت الرِّجَالُ أو اعْتَمَيْتِ (١)  
وقاموا في تواجدهم فداروا      كأنهم ثَمالٌ من كُمَيْتِ (٢)

ويقول أيضاً :

تستروا بأمورٍ في ديانتهم      وإنما دينهم دين الزناديقِ  
نكذَّبَ العقلُ في تصديقِ كاذبهم      والعقلُ أولى يا كرامِ وتصديقِ

وهكذا استمر أبو العلاء يرى الدنيا هذه الرؤيا السوداء ، وتجمعت ظلمات كثيرة من حوله بعضها فوق بعض ، فالدنيا آلام وعذاب ونكبات ونواب ، بل هي شر مستطير يجب أن نتخلص منه فنخرج من هذا العالم الموحش المظلم ، ونسريح من متاعبه وآلامه :

حياتي تعذيبٌ وموتى راحةٌ      وكلُّ ابنِ أنثى في الترابِ سجينٌ

ولا شك في أن أبا العلاء بتشاؤمه وسخطه على الدنيا والناس من حوله يثير في أنفسنا ضروباً من الشفقة عليه إذ كان يتجرع الحياة غُصصاً خالصة . ولو أنه أخذ نفسه بالرضا والتسليم فافتنع بحظه وحظ الناس من حوله ، وما في دنيانا من نصيب وعذاب لاستراح وأوى إلى ظليلٍ ظليلٍ ، ولكنه لم يرض ولم يسلم ولم يقنن فسعر نفسه وأودى بها في هذا الجحيم المظلم من الإحساس بالشقاء والتعاسة وما ينطوي فيهما من تشاؤم شديد ، وظل في هذا الجحيم بصارع الناس وبصارع الحياة حتى صرعه .

#### ٤

#### اللزوميات وفلسفة أبي العلاء

من يقرأ اللزوميات ويتبع سيرة أبي العلاء يرى أنه كان يسلك منهجاً واضحاً في معيشته وعقله وتفكيره ، فهو يبدأ فيقيد لذائذه ، ويحد نفسه بقوانين

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار . (٢) الكيت : الخمر . ثمال : سكارى .

صارمة في مطعمه وملبسه ، إذ كان يختار خشن الثياب والطعام ، وقصّ ذلك في شعره فقال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلّسن والبلّسن فهما يقنعانه ، وهما غذاؤه في حياته ، وهو غذاء يجد فيه راحته النفسية ، لأنه غذاء زاهد متقشف يرفض لذائد الحياة وما ينطوي فيها من لذائد الطعام :

يُقْنَعُنِي بِلُّسْنٍ يُمَارَسُ لِي فَإِنْ أَتَيْتَنِي حَلَاوَةً فَبَلِّسْ  
فَلِّسْ مَا اخْتَرْتَ إِنَّ أَرْوَحَ مِنْ بَسَارِ قَارُونَ عَفَّةً وَفَلِّسْ<sup>(١)</sup>

ويقول الرحالة ناصر خسرو - وقد مرّ بالمعرة في حياة أبي العلاء - : إنه « تزهد فلبس بسيطاً ولزم بيته وقوته نصف من<sup>(٢)</sup> من خبز الشعير<sup>(٣)</sup> ». ويقول القفطى : « لم يكن أبو العلاء من ذوى الأحوال في الدنيا ، وإنما خلّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن نحمل المين فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشن الملابس والمأكل والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً قد رمنها لمن يخدمه النصف وأبقى النصف الآخر لمثوته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخاً ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن ، وفرشه من لباد في الشتاء وحصيرة من البردى في الصيف ، وترك ما سوى ذلك<sup>(٤)</sup> » .

وكل هذا يدل على أن أبا العلاء كان يأخذ نفسه بحياة خشنة زاهدة ، ولعل ذلك ما جعله ينفر عن مديح الرؤساء طلباً للجوائز والمكافآت . يقول في مقدمة سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس ، فالحمد لله الذى ستر بغفّة<sup>(٤)</sup> من قوام العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوقر ». فهو لا يمدح طلباً للنوال ، وماذا يفيد النوال ؟ لقد رفض كل شيء وعاش عيشة الكفاف والزهد ؛ وكان يصنع ذلك عن عمد وقصد إليه . روى الرواة أن

(١) لس : كل ، ولس : أكل .

(٢) الفقة : البلعة من العيش . والسوس : الطبيعة .

(٣) الحضارة الإسلامية لمتز ١١٠/٢ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ .

« المستنصر صاحب مصر بذل له ما ببيت المال بالمعرة من المال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لا أطلبُ الأرزاقَ والـ      حمولى يُفبضُ على رزقِ  
إن أُعطى بعضَ القوتِ أعـ      لم أن ذلك فوق حقى « (١)

لم يكن أبو العلاء يطلب مالا ولا عطاء ، لأنه كان زاهداً فى حياته متقشفاً يكفيه القليل الذى يقيم أوده ، أما ما دون ذلك فهو ينبذه ، وماذا نريد من الدنيا وهى تنهى بنا إلى الفناء وتسوقنا إلى الموت سوقاً حاملين ما نحمل من أثقال كروب وآلام ! إن علينا أن نقوى أنفسنا بالزهد حتى نلقى هذا المصير المحتوم :  
لا تشرفنَ بدنيا عنك معرصةً      فما التشرُّفُ بالدنيا هو الشرفُ  
واصرف فؤادك عنها مثلما انصرفتُ      فكلنا عن مغانيها سنصرفُ  
يا أمّ دفر (٢) لحاك الله والدةً      فيك العناءُ وفيك الهُمُّ والشرفُ  
لو أنك العرسُ أوقعتَ الطلاقَ بها      لكنك الأمُّ ما لى عنك منصرفُ

واستمر أبو العلاء نحو خمسة وأربعين عاماً يصرخ فى الناس بهذه الدعوة الحارة إلى الزهد والتقشف ؛ وبدأ بنفسه فسنّ لها قوانين من الزهد صارمة التزمها طوال حياته ، فلم يتعلق بشيء من زخارف الدنيا وزينتها ، بل رفضها فيما رفض ورفض معها متاع الأولاد والزواج لا لسبب سوى هذا الحرمان الذى كان يأخذ نفسه به ، وفى ذلك يقول :

لو انّ بنى أفضلُ أهلِ عَصْرِى      لما آثرتُ أن أحظى بنسلِ  
وفى امتناعه عن الزواج والنسل ما يجعلنا نرى جانباً من تشاؤمه الأسود الذى ضرب ظلماته على حياته وجميع أفكاره ، ولعل ذلك ما جعله يوصى بأن يُكتبَ على قبره :

هذا جنّاهُ أبى علـ      و ما جنيتُ على أحدٍ  
وحقاً أن أبا العلاء لم يحن على أحد لا من حيث النسل والزواج فقط بل أيضاً من

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٦٩ . (٢) أم دفر : الدنيا .

حيث حاجاته في الحياة فقد كان زاهداً فيها زهداً شديداً ، وكان لا يريد أن يتصل منها بشيء لا بأزواج وأولاد ولا بغير أزواج وأولاد ، وهاجم فكرة الزواج والنسل في شعره كثيراً كقوله الذي أنشدناه :

فليت حواءَ عقيماً غَدَتَ لا تَلِدُ الناسَ ولا تَحْبِلُ

كان أبو العلاء برماً بالحياة وكان يراها سلسلة آلام ، فأكثر من نقدها ونقد الذين يعيشون فيها . وأعجب بعض الناس هذا النغم الذي يردده أبو العلاء ، وراعهم أنه كان صاحب عقلٍ حُرٍّ بالنسبة لأهل عصره فهو يهاجم أصحاب الأديان ، فذهبوا إلى أنه كان فيلسوفاً ، وحشروه في زمرة الفلاسفة ، ومن العجب أن نجد مثل نيكلسون<sup>(١)</sup> وهيار<sup>(٢)</sup> يذهبان هذا المذهب ، وليس لرأيهما ولا لمن تبعهما أى دليل على هذه الفلسفة إلا إذا كنا نعد كل زاهد يدعو إلى الزهد والتشرف في الحياة فيلسوفاً . وزُهد أبي العلاء وما يُطَوَى فيه من نظر جرىء إلى مسائل الدين لا يكفي لنعده فيلسوفاً بالمعنى اليوناني لهذه الكلمة إنه لم يُعرَفْ عنه أنه كان ملخصاً للفلسفة اليونانية على نحو ما صنع الفارابي وغيره من جماعة الفلاسفة المسلمين ، وهو أيضاً لم يعرف عنه أنه نَمَى مذهباً من مذاهب الفلسفة اليونانية ، ولذا كان من الخطأ أن يجعل بعضُ النقاد أبا العلاء فيلسوفاً بالمعنى اليوناني لهذه الكلمة ، وهو لم يلخص الفلسفة اليونانية فضلاً عن أن يكون من المنتمين لها ولا كان من المتعلقين بمذهب من مذاهبها .

وأكبر الظن أن شُبُهة فلسفة أبي العلاء جاءت من أنه كان نباتياً يحرّم على نفسه أكل اللحم واللبن والبيض والسمك وعسل النَّحل ، وفي ذلك يقول :

غَدَوْتُ مريضَ العقلِ والرأى فالتقتي لتعلمَ أنباءَ الأمورِ الصحاحِ  
فلا تَأْكُلنْ ما أخرجَ الماءُ ظالماً ولا تَبِيعِ قوتاً من غرييضِ الذَّبائحِ<sup>(٣)</sup>

Huart, Littérature Arabe, p. 99. (٢)

(٣) الغرييض : الطرى .

Nicholson, A Literary History of (١)  
the Arabs, p. 313.

وَأَبْيَضَ أَمَّاتٍ أَرَادَتْ صَرِيحَهُ لِأَطْفَالِهَا دُونَ الْغَوَانِي الصَّرَائِحِ (١)  
وَدَعُضْرَبَ النَّحْلَ الَّذِي بَكَرَتْ لَهُ كَوَاسِبٍ مِنْ أَزْهَارٍ نَبَتٍ فَوَائِحِ (٢)

والمراد بالأبيض اللبن .

والمعروف أن أبا العلاء ترك أكل اللحم ومشتقاته رحمة بالحيوان . روى الرواة أن سائلاً سأله : « لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان ، قال : فما تقول في السباع التي لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان الخالق الذي دبّر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطبايعُ المحدثّةُ لذلك فما أنت بأحذق منها ، ولا هي أنقص عملاً منك » . ويعلق ابن الجوزي على هذه الرواية فيقول : « لقد كان يمكنه أن لا يذبح رحمة فأما ما ذبحه غيره فأى رحمة قد بقيت في ترك أكله » (٣) . على كل حال كان أبو العلاء نباتياً وقد صدّ عن أكل اللحم ودعا إلى ذلك ، وله حوار طريف مع داعي الدعاة في هذه المسألة يرجع إليه القارئ في ترجمته بياقوت ، ولكن هل هذه النباتية في أبي العلاء تجعلنا نزعّم أنه فيلسوف ؟ إنها طريقة في الحياة وليست طريقة في التفكير . على أننا إذا أردنا تصحيح القياس وجب لكي نُشَبِّهَ فلسفته عن هذه المقدمة أن نكون على يقين من أن هذه النباتية يونانية أو أنها مذهب فلسفي من مذاهب اليونان ، وليست النباتية من مذاهب اليونان ولا من فلسفتهم ؛ إنما هي مذهب هندي يرجع إلى البراهمة ، وقد قصّ علينا ذلك كلٌّ من ترجموا لأبي العلاء ، يقول ابن الأنباري : « يُحكى عنه أنه كان برهيمياً وأنه وُصِفَ لمريضٍ فَرُوجٌ ، فقال : استضعفوك فوصفوك » (٤) ويقول ابن الجوزي : « كان ظاهر أمر أبي العلاء يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ويحددون الرسل » (٥) ويقول ياقوت عنه : « كان متهماً في دينه ، يرى رأى البراهمة : لا يرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور » (٦) . ويقول أبو الفداء :

(١) صريحه : خالصه . الصرائح : الجيلات .  
(٢) الضرب : العسل الأبيض الثقيل .  
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩ .  
(٤) نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن الأنباري (طبع مصر) ص ٤٢٧ .  
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩ .  
(٦) المصدر نفسه ص ٤٦ .

«نسب أبو العلاء إلى المذهب بمذهب الهند لتركه أكل اللحم خساً وأربعين سنة ، وكذلك البيض واللبن ، وكان يحرم إيلام الحيوان»<sup>(١)</sup> . ويقول ابن فضل الله العُمريّ : «ترك أبو العلاء أكل لحوم الحيوان وعموم ما يجرى مجراها من الأعسال والألبان ومال في هذا إلى رأى الحكماء ! وقال بمذهب البراهمة في تجنّب إراقة الدماء»<sup>(٢)</sup> . ويقول السُّلّقى : «من عجيب رأى أبى العلاء تركه تناول كل ما كول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى 'نسب إلى التبرهم ، وأنه يرى رأى البراهمة في لإثبات الصانع وإنكار الرسل : وفي شعره ما يدل على هذا المذهب»<sup>(٣)</sup> . وواضح من هذه النصوص أن العرب لم يصلوا بين نباتية أبى العلاء وفلسفة اليونان ، إنما وصلوا بينها وبين التبرهم والبراهمة ، فهى ليست شيئاً يونانياً ، ومن الخطأ أن يعتمد عليها بعض الباحثين في لإثبات فلسفة أبى العلاء ، وهى لا تمت مباشرة إلى اليونان وفلسفتهم .

والحق أن أبى العلاء ليس فيلسوفاً بالمعنى اليونانى لهذه الكلمة إلا إذا توسعنا في معناها وجعلنا كل شخص يفكر تفكيراً حراً فيلسوفاً أى محباً للحكمة ، آخذاً بقوانين العقل غير متقيد بعرف الناس ولا بما يعتقدون من آراء وأفكار . إذن يكون أبو العلاء فيلسوفاً ، ومن أهم ما يميزه ما نراه عنده من تشاؤم شديد ، فالعالم مليء بالشر وأيضاً ما نراه عنده من شكوك . يقول التبريزى : «إن أبى العلاء سألتنى يوماً ما الذى تعتقد ؟ فقلت فى نفسى : اليوم أقف على اعتقاده ، فقلت له : ما أنا إلا شك ، فقال : وهكذا شيخك»<sup>(٤)</sup> . وأقرّ أبو العلاء بهذا الشك فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة إذ يقول : «قد بدأ المعترف بجعله المقرُّ بحيرته والداعى إلى الله سبحانه أن يرزقه ما قلّ من رحمته»<sup>(٥)</sup> . ويظهر أنه كان لحنّة أبى العلاء فى بصره أثر فى تكييف هذا الشك العلائى ، فقد كان يضيق بما أصابه من هذا الشر فى بدء حياته ولم يستطع له

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر لأبى القدا

فى حوادث ٤٤٩ .

(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١٧ .

(٣) لسان الميزان لابن حجر (طبع حيدرآباد)

٢٠٤ / ١

(٤) معجم الأدباء (طبعة مرجليوث) ١ / ١٧١ .

(٥) معجم الأدباء ١ / ١٢٠ . وانظر أيضاً

ص ٢٠٤ .

تفسيراً فرجع يشك في بعض الحقائق ، حتى ليشك في الشك نفسه ، وهذا مصدر ما نجد عنده من تناقض يعتري آراءه . وليس من شك في أن اللزوميات تريناً أبا العلاء حائراً حيرة شديدة ، فالدنيا كلها وما وراءها ظلام وسواد ولُجَجٌ واسعة من الحيرة : الحمد لله قد أصبحتُ في لُجَجٍ مَكابِداً من هموم الدهر قاموساً<sup>(١)</sup>

واتسعت هذه اللجج عليه ولم يستطع أن يقاومها ولا أن يخرج منها ، فشك فيها تأمهاً حائراً ، واستمرَّ يقص علينا في لزومياته قصة هذا الطوفان ، فقد أطبقت عليه الأمواج من كل جانب ، وكأنما أفسدت عليه جميع الطرق والمناهج :

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا واستوتُ في الضلالة الأدبانُ  
أنا أعمى فكيف أهدى إلى المنذ هجج والناس كلهم عُميانُ

ولم يستطع أبو العلاء حقاً أن يهتدى إلى المنهج في كثير من المسائل والمشاكل فشك واتسع عليه الشك حتى جعله لا يؤمن بيقين ، وعبر عن ذلك في مرثيته لأبيه تعبيراً واضحاً ، إذ يقول :

طلبت يقيناً من جهينبة عنهم ولم تُخبرني يا جهين سُوى الظن<sup>(٢)</sup>  
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فأنى لم أعطَ الصحيح فأستغنى  
ويقول أيضاً :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأحدِّسا

فأبو العلاء يطلب اليقين فلا يجد إلا الظن والحدس ، وإذن فن الخطأ أن يأتي باحث فيراه يقول رأياً فيظنه يقيناً ، ثم يراه يخرج عنه فيقول : إنه مضطرب متناقض ، فإن أبا العلاء لم يكن صاحب يقين في رأى من الآراء ، بل هو صاحب ظن وحدس وشك ، وهو يعمم هذا الشك في كل شيء ، سوى إيمانه بربه ، إذ يقول :

جبهة الخبر اليقين .

(١) القاموس : المحيط .

(٢) يشير إلى المثل العربي القديم : عند

أُنْبِتَتْ لِي خَالِقًا حَكِيمًا وَلَسْتُ مِنْ مَعْشَرِ نَفَاةٍ  
فأبوا العلاء لم يكن يشك في ربه إذ كان يرى كل شيء حوله يشهد بوجوده ،  
وهو كذلك لم يكن يشك في عقله ، بل لقد كان يؤمن به إيماناً شديداً ، يقول  
في بعض شعره :

كذب الظنُّ لا إمام سوى العقْدُ لِي مشيراً في صبحهِ والمساءِ  
ويقول أيضاً :

وشاور العَقْلَ واتركُ غيره هدراً فالعقل خيرُ مشيرٍ ضمتهُ النَّادى  
إلا أن هذا العقل كان قاصراً ولم يستطع أن يفسر له أسرار الكون وما فيه  
من حقائق الخير والشر ومن هنا اعترفَ كما مر بنا آنفاً أنه لا يكاد يوجد يقين  
وأن مبلغ علم الإنسان أن يظن ويحدس ، وكأن العقل يضطر أحياناً إلى التوقف  
دون اليقين عند أسوار الظن والحدس . وآمن خاصة في المسائل الشرعية أن العقل  
ينبغي أن لا يجمع وأن لا يحاول الخروج على الشرع بل يكون تابعاً له ، يقول :  
وجدنا اتباع الشرع حزمًا لذى النهى ومن جرب الأيام لم ينكر التسنُّخا  
وقد توقف بعض الباحثين عند أبيات في اللزوميات رآه فيها يهاجم الديانات  
فظن أنه يهاجمها حقاً ، وهو إنما يهاجم أصحابها ، يقول :  
هَفَّتِ الحنيفَةُ والنصارى ما اهتدتُ ويهودُ حارتُ والمجوسُ مضلَّةُ  
اثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٍ لا عقلَ له  
ويقول :

دينٌ وكفرٌ وأنباءُ تُقالُ وفُرُ قانِ يَنْصُ وتوراةٌ وإنجيلُ  
في كل جيلٍ أباطيلٌ ملفَّسةٌ فهل تفرَّدَ يوماً بالهدى جيلُ

وواضح أن أبا العلاء إنما يهاجم في البيتين الأولين أصحاب الديانات الذين  
توزعتهم الفرق والأهواء فأهدروا عقولهم ، حتى عميت الحيرة والتبس الأمر ،  
وهو في البيتين التاليين إنما ينص على أنه لا يوجد جيل يخلو من الكفر والضلال .  
وليس في ذلك هجوم على الأنبياء ولا هجاء كما ظن بعض المعاصرين .

ولا نستطيع أن نَخْرِج من كل ذلك بأن أبا العلاء كان زنديقاً أو ملحداً كما قال بعض القدماء ، والواقع أنهم تطرفوا حينها أضافوا إلى أبي العلاء الزندقة والإلحاد ملتصقين ذلك في أبيات حملوها على معنى مخالف لما قصده ، وهي قليلة جداً في لزومياته ، إذ كثرتها تحميد وتقديس وتمجيد في الله . على أننا إذا تطرفنا مع هؤلاء السابقين وجعلنا أبا العلاء زنديقاً أو ملحداً لم يكن هناك ما يبرر أن نزعم بأنه فيلسوف ؛ لأن الإلحاد والزندقة ليسا هما الفلسفة فالفلسفة شيء والإلحاد والزندقة شيء آخر ، وإلا سقط من تاريخ الفلسفة كثير من الفلاسفة المسيحيين والمسلمين .

والحق أن أبا العلاء كان مفكراً حر الفكر وكان زاهداً صادق الزهد وكان شديد التشاؤم غير أنه لم يستطع أن يخرج من ذلك إلى إحداث نظرية معينة أو منهج معين يمكن أن نسميه « المنهج الفلسفي لأبي العلاء » إلا إذا كنا ممن يلتقطون بعض الأقوال للشعراء ويحاولون أن يحمّلوها أكثر من مدلولها ، ثم يستخرجوا لهم فلسفة ذات أصول وفروع متشابهة . ونحن بهذه الطريقة نستطيع أن نجعل أبا العلاء فيلسوفاً ، كما نستطيع أن نجعل المنبهي وأبا تمام وأبا العتاهية فلاسفة بأفكار معدودة وآراء محصورة جاءت في أشعارهم . والحق أن ذلك كله مبالغ في البحث يؤدي إليها عادة غلو الباحث في الإعجاب بالشاعر الذي يبحثه ، وكان من حسن حظ أبي العلاء أن غالى كثير من المعاصرين الذين عُنوا ببحثه . فأتبته فيلسوفاً لما رأوا عنده من تشاؤم وحيرة وشك وزهد ، ولكن هل يكنى التشاؤم أو الزهد أو الحيرة لعدد شخصاً فيلسوفاً؟ أما نحن فلا نشك في أن أبا العلاء لو كان فيلسوفاً حقاً لفلسف تشاؤمه في الحياة فجعله في شكل كلية عامة ، وطبق هذه الكلية على الجزئيات المختلفة تطبيقاً شاملاً ، إذن كان يتساءل كيف نحكم على الأشياء وما أدواتنا في المعرفة ، هل هي الحس أو الفكر أوهما جميعاً . ولكنه لم يصنع شيئاً من ذلك ، إنما كل ما صنعه أنه استراح إلى العقل في الحكم على الأشياء وألقى عليه العبء كله ، ولو أنه صاحب عقل فلسفي لشك في هذا العقل نفسه وامتنعته وأخضعه للتجربة على نمط ، يحلل فيه المعرفة في الطبيعة وما وراء

الطبيعة . وكنا ننتظر منه أن يتساءل هل يمكن للعقل أن يعرف ما وراء الطبيعة من مسائل البعث والنشور أو لا يمكن ؟ وإذا ثبت إمكان ذلك فهل طريقنا إليه العقل أو الشعور ؟ وهل يمكن للعقل أن يحكم في قضايا ما وراء الطبيعة كما يحكم في قضايا الطبيعة ؟ وهل أحكام العقل المجرد تكون صواباً دائماً ، أو أنها معرضة للخطأ ؟ كل ذلك لا نجد له أثراً عند أبي العلاء لأنه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وآية ذلك أنه لم يترك أى نظرية فلسفية معللة أو موضحة ، وكيف له بصنع نظريات ؟ إنه لم يكن يفكر التفكير الفلسفى الذى يقوم على صنع كليات ، إنما كان يفكر تفكيراً أدبياً يقوم على تشاؤم وسخط ، وهو يعرض هذا التفكير فى آراء متفرقة وأفكار مفككة ، لا يطرّد لها نظام ولا سياق فكرى متماسك .

٥

### صياغة اللزوميات

من يقرأ اللزوميات وينظر فيها نظرة فنية من حيث الصياغة والتنسيق يلاحظ أن جوانب كثيرة منها واهية ، إذ استغرقها أبو العلاء بالتكرار حتى كاد أسلوبه أن يسقط فى غير موضع من مواضعها ، نعم إنه وفقّ فى بعض أبياتها ولكن الكثرة الغالبة يعمها الإسفاف والضعف ، وكأنى به نسى أسلوب الشعر الذى كان يعرفه فى سقط الزند ، وهل يستطيع الإنسان أن يؤمن بأن اللزوميات أنشأها أبو العلاء بعد ديوان « سقط الزند » بنفس صورة صياغته؟! . على أنه ينبغي أن نعرف أن سقط الزند لا يعتبر مثلاً أعلى فى الصياغة الفنية للشعر العربى ، فديوان كديوان المتنبى يتفوق عليه فى هذا الجانب ، ولعله من أجل ذلك كان يسميه أبو العلاء « معجز أحمد » ، واستمر فى سقط الزند دون هذا المعجز إلا فى مرثيته ، فقد أظهر فيها تفوقاً نادراً من حيث الصياغة وخاصة مرثيته :

غَيْرُ مُجْبَدٍ فى مَلْتى وَعِتْقَادى      نَوْحُ بَاكٍ وَلَا تَرْتَمُ شَادِ

وإن هذه القصيدة لتتفوق على كل ما كتبه فى لزومياته ، ولعلنا لا نبالغ إذا

قلنا إنه يسود فيها الخلل والضعف في البناء . وكان القدماء أنفسهم يعرفون فرق ما بين الديوانين؛ فالذهبي يقول إن السَّقْطُ جيد بخلاف اللزوميات (١) ، وفي غير موضع نجدهم يشيدون بالسَّقْط (٢) ، وحقاً ما يقوله «نيكلسون» من أن أبا العلاء يدين بشهرته في المشرق إلى مجموعة أشعاره الأولى المسماة بسقط الزند (٣) ، فإن أبا العلاء الشاعر إنما تلقاه في السَّقْط ، أما في اللزوميات فلا بد من إضافة وصف آخر غير وصف الشاعر ، نسميه أبا العلاء الواعظ أو الزاهد أو المتشائم أو نحو ذلك من أوصاف تعبر عن موضوع الديوان ، أما كلمة الشعر والشاعر فن الصعب أن نضيفهما إليه . يمكن أن نسميه الناظم ولكن من الصعب أن نعطيه لقب الشاعر ، أو نسمى ما في اللزوميات شعراً ، وربما كان ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى أنه لم يتأنَّ ولم يتمهل في صُنع اللزوميات . روى ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار عن بعض القضاة أنه قال : « بينا أنا عند أبي العلاء المعري في الوقت الذي يُملئ فيه شعره المعروف بلزوم ما لا يلزم ، فأملئ في ليلة واحدة ألني بيت . كان يسكت زماناً ثم عيلى قريباً من خمسمائة بيت ثم يعود إلى الفكرة والعمل إلى أن أكمل العدة المذكورة » (٤) . وقد سقنا هذه الرواية لندل بها على أن أبا العلاء لم يكن يعنى بتجويد شعره وتحبيره في اللزوميات فهو لا يعطيه المهلة الكافية للصقل والانتخاب والتنقيح ، ثم التأليف والتنسيق ، فخرج شعره مهلهلاً ضعيف النسيج ليس فيه شيء من حبكة التعبير ولا جمال التصوير إلا في القليل الأقل . وليس هذا فقط هو كل الأسباب ، فهناك سبب آخر ربما كان أهم من السبب السابق ، وهو الطريقة التي أخرج بها أبو العلاء لزومياته ، أو بعبارة أدق الغاية التي أرادها للزومياته ، فقد كان — فيما يظهر — يريد أن يخرجها في شكل خُطْبٍ وعظ وإرشاد ؛ يقول في مقدمتها : « إنها تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ووضع المينن في كل جيد ، وبعضها

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٨ . (الطبعة العربية) ص ٣٨١ .

(٢) الأنساب للسمعاني ص ١١٠ . (٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٤٩ .

(٣) المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية

تذكير للناسين وتنبية للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا » . فهو يقصد بها إلى الوعظ ، وهي لذلك تمتلئ بما تمتلئ به أساليب الوعظ من التكرار المُتملِّ ، ومن أجل ذلك كنا نشعر حين قراءتنا للزوميات بملل وسأم شديد ، لأن الشاعر يتنقل بين أفكار يبدئ فيها ويعيد ، وقد أخرجها في أسلوب واحد ، ليس فيه جمال فني ولا طرافة فنية إلا قليلاً .

والحق أن أبا العلاء لم يستطع أن ينهض بالصياغة الفنية في لزومياته إذ كان يعتمد على تكرار الأفكار ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن هناك مجموعة من الأفكار ما يزال ينظمها أبو العلاء على قواف وحروف مختلفة ، وهو يغير في القافية أو في الحرفين الأخيرين ، ولكنه قلما حاول أن يغير في المعاني والأفكار ، ولذلك يستطيع الباحث أن يقرأ طائفة من مقطوعات الزوميات ويترك الأخرى ، لأنه قلما يجد جديداً إلا ما يخضع له أبو العلاء من قيود في ألفاظه وقوافيه .

ليس في الزوميات غالباً جمال في الصياغة ولا تنوع في الأفكار ، إنما فيها بدء وإعادة وتكرار غريب للمعاني ، وهي معان عامة وكثيراً ما ينقصها العمق والابتكار ، وما يزال المعرى ينظمها على حرف من الحروف كالباء ثم يعود إلى حرف آخر كالتاء ، وهو ينظمها مرة على حرف الباء أو غيرها مضمومة ، ثم يعود مرة أخرى أو مراراً فينظمها على حرف الباء أو غيرها من الحروف مكسورة أو منصوبة أو ساكنة . ومن أجل ذلك التكرار والإعادة كنا نملُّ متابعة أبي العلاء في لزومياته ، إذ ما يزال يجترُّ أفكاراً محفوظة يكررها على قواف وأوزان مختلفة . ولعل مما يصور ذلك تصويراً واضحاً رسالته المسماة باسم «ملقى السبيل» حيث نجده يصوغ المعنى نثراً ، ثم يصوغه شعراً على هذا النمط ، إذ يقول : « كم يجنى الرجل ويخطيء ، ويعلم أن حنقه لا يبسطي :

إِنَّ الْأَنْسَامَ لِيُخَطِّئُوْنَ وَيَغْفِرُ اللهُ الْخَطِيئَةَ  
كَمْ يَبْطِئُونَ عَنِ الْجَمِيْلِ وَمَا مَنَائِمُهُمْ بَطِيئَةٌ »

وعلى هذه الصورة التي نجدها في «ملقى السبيل» كان أبو العلاء ينظم في لزومياته ولم يكن ينظم المعنى نثراً ، ثم ينظمه شعراً ، بل كان ينظمه شعراً ، ثم يعود

فينظمه أيضاً شعراً ، ولكن على قافية جديدة ، وقيود لفظية جديدة ، وهذا كل ما يصنعه من تغيير ، وهو تغيير قلما يضيف طرافة في التفكير، إذ يُدخّل عليه أبو العلاء هذا التكرار الذي يصيب الصياغة في اللزوميات بضروب واسعة من الابتدال .

وأكبر الظن أننا لا نُبتعد حين نقول إن أبا العلاء كان واعظاً في لزومياته ، ولذلك لم يحسن صوغ أفكاره في الأساليب الخاصة بالشعر ، لأن الوعظ من طبيعته التكرار ، وهو يلائم النثر ، ولا يلائم الشعر ، ومن ثمّ كان الخطباء والوعاظ يتخذون النثر أداة للتعبير عن أفكارهم ومعانيهم المكررة، فإذا جاء خطيب أو واعظ واتخذ الشعر أدواته في الخطابة أو الوعظ كان لا بد له أن يسقط في استخدام هذه الأداة الجديدة مهما تكن مقدرته البيانية . ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن نجد أبا العلاء يخفق في استخدام الشعر أداة لوعظه وتشاؤمه الذي نعرفه في اللزوميات ، وخاصة أنه أطال هذا الوعظ والتشاؤم وامتدّ به نفّسه إلى عشرات الصفحات بل مئات الصفحات ، فبدأ في أساليبه هذا الانهيار والسقوط وما يتبعهما من ابتدال ، بحيث لا نجد ما يعجب حاستنا الفنية إلا في النادر ، فالأفكار عارية لا يحول بينها وبين الإسفاف حائل ، ولذلك قلما نحس في أثناء قراءتنا اللزوميات ببهجة فنية، إذ لم يستطع أبو العلاء أن ينهض بصياغتها إلا هذا النهوض القاصر الذي يعود بالشعر وكأنه يشبه أساليب الوعظ والإرشاد .

## ٦

## اللوازم الدائمة في اللزوميات

لم يوقّر أبو العلاء مجهوداً واسعاً في إحكام صياغته ، إذ كان مشغولاً عنها بعقده ولوازم غريبة في لزومياته، فهو يصعب على نفسه الممرّات إلى شعره، ويتقيد بلوازم دائمة يتبعها في صناعته . ولعل أهم هذه اللوازم ما أشار إليه في مقدمة ديوانه إذ يقول : « وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كُلف، الأولى أنه يتنظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أنه يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من بناء أو

تاء أو غير ذلك من حروف « . ونحن نلتفت من هذه الكلف إلى أن اللزوميات ليست ديواناً بالمعنى المألوف عند العرب ، ولعل ذلك ما جعل أبا العلاء يسميها في مقدمته لها تأليفاً ، وسمّاها مرة أخرى كتاباً ، وحقاً إنها أُلفت على شكل التأليف والكتب ، فقد قُسمت إلى أبواب وقسمت الأبواب إلى فصول وهل هناك ديوان قبل اللزوميات نُظِم شعراً ووُزِعَ - على هذا الطراز - إلى أبواب وفصول كما يصنع أصحاب النثر بتأليفهم وكتبهم ! ؟

ومهما يكن فاللزوميات أول ديوان في اللغة العربية يؤلّف على طريقة خاصة يذكرها الشاعر في مقدمته ويطبّقها على أبياته بيتاً بيتاً . وهذه الطريقة يحددها أبو العلاء بثلاث كُلفٍ ، ولكن لنحذر هذا التحديد ، فهي أكثر من ذلك وأوسع ، ولست أجد كلمة تعبر عن هذه الكلف الكثيرة ككلمة اللزوميات التي يظهر أنها استعيرت للديوان من كتب المناطق لتدل على ما فيه من نسب ومعادلات بين ألفاظه وقوافيه . وإذن فتصنع المعرى في اللزوميات لا يقف عند الكلف العروضية بل يتعداها إلى كلف أخرى كان يشغل بها هذا الفراغ الطويل الذي امتدّ إلى نحو خمسين عاماً قضاها حبيب بيته ونظيره وأفكاره المظلمة في الحياة والكون ، وعبر عن ذلك أجمل تعبير ، إذ يقول :

أرأني في الثلاثة من سُجُونِي فلا تسأل عن الخبرِ النَّبِيثِ (١)  
لفقدي ناظري ولزومِ بيتي وكونِ النفسِ في الجسمِ الخبيثِ

وذهب يحبس أفكاره في هذه السجون العروضية السابقة ولم يكتف بها إذ أراد أن ينوع فيها كما تنوعت سجونه ، واستعان بثقافته على ما يريد من هذا التنوع . ولعل أهم ثقافة سجن في قيودها آثاره هي الثقافة اللغوية ، إذ نراه يتصنع الإغراب في ألفاظه ، وعمّم ذلك في جميع أشعاره وكتاباتاته ، حتى يشعر الإنسان في أحوال كثيرة بأنه يقرأ في متن من متون اللغة العويصة ، ولقد كان المظنون أن يتعد بهذا الإغراب في اللغة عن اللزوميات ، فإن ما فيها من وعظ لا تلائمها الأنفاظ الغريبة إذ هو يوجّه عادة إلى الجماهير وهي لا تعرف

(١) النبيث : الخفى .

الألفاظ العويصة ، ولكن أبا العلاء اتخذ هذه الألفاظ الغربية لازمة دائمة في صناعة لزمياته ولم يستطع أن يتخلص منها ، وقد أضاف إليها لازمة أخرى دائمة هي لازمة الجناس .

ولعل من الطريف أن أبا العلاء استطاع أن يستخدم هذا الجناس استخداماً مزدوجاً فهو يأتي به غالباً ليعبر عن جناس من جهة وليعبر عن لفظ غريب من جهة أخرى . كان أبو العلاء يستخدم الجناس استخداماً لغوياً يريد به أن يدل على مهارته في اللغة قبل أن يدل على مهارته في استخدام لون قديم من ألوان التصنيع . ولم يكتف أبو العلاء بما أحدثه بين الجناس والألفاظ الغربية من مزاجحة ، بل راح يصعب على نفسه ، إذ نراه يطلبه بين حشش البيت والقافية ، حتى يحدث هذه القيم المعقدة في قوافيه ؛ فهو يلتزم فيها حرفين أو أكثر ، وهو يلتزم فيها اللفظ الغريب ، وهو أخيراً يلتزم الجناس بينها وبين ألفاظ البيت ، أرأيت إلى هذا التعقيد ؟ إنه تعقيد ينسنا تعقيد المتنبى لموسيقاه الداخلية الذي عرضنا له في غير هذا الموضع ، بل هو ينسنا تعقيد المهلبى للملاعقه في طعامه ؛ فالمهلبى إنما كان يكرر الوسيلة فقط ، أما أبو العلاء فإنه يستطيع أن يعقدها تعقيداً شديداً على هذا النمط الذي نقرؤه في هذه الأبيات :

عَدِيْرِي من الدُّنْيَا عَرَتْنِي بِظَلْمِهَا  
فتمنعتني قُوِي لَتَأْخِذَ قُوِي  
وجدت بها دِينِي دَتِيًّا فُضِرْتِي  
وأضللتُ منها في مَرُوتٍ مُرَوِّقِي (١)  
أخوتُ (٢) كما خاتمتُ عُقَابُ لَوَانِي  
قدرتُ على أمرٍ فَعُدَّتْ أَخَوَتِي  
وأصبحتُ في تِيهِ الحِيَاةِ منادياً  
بأرفعُ صَوْتِي أينَ أَطْلُبُ صَوْتِي (٣)  
وما زال حُوِي (٤) راصدي وهو آخذِي  
فما لمتسَابِي ليس يغسل حُوِي  
رَأَيْتِي رَبُّ النّاسِ فِيهَا مُتَابِعًا  
هَوَايَ فَوَيْحِي يَوْمَ أُسْكِنُ هَوْتِي  
أَبَوْتِكَ (٥) يَا لَأُمِّي وَمَنْ لِي بَأَنِّي  
أنت تراه يجانس جناساً غريباً بين القوافي وحشش البيت ، وكان أبا العلاء

(٣) الصورة : المنارة ينتهي بها .

(٤) الحوت : سواد الإثم .

(٥) أبوتك : صرت لك أبا .

(١) مروت جمع مرت : الأرض لا نبات

فيها .

(٢) أخوت : أنقض .

يُكره الألفاظ إكراهاً على أن تؤدَّى هذا الجناس المفتعل الذى لا يحوى جمالاً ولا روعةً فنية ، وأى جمال أو روعة فنية فى المجانسة بين قوت وقوتى ومروت ومروتى وأخوت وأخوتى وصوتى وصوتى وحوتى وحوتى وهوى وهوتى وأبوتى وأبوتى؟ لكأنما عجز الشعر فى هذه العصور عن أداء الجناس القديم الذى كنا نجده فى القرن الثالث إلا أن يخرج إلى هذه الفنون من الالتواء والتعقيد . وانظر إلى الواو المشددة التى ختم بها أبو العلاء أبياته ، فإنها تُظهرنا على صناعته فى اللزوميات ، إذ كان يريد أن يثبت مهارته فى النظم على جميع الحروف ، فإذا هو يقع فى مثل هذه الواو المشددة الغربية ، ولكن أى غرابة فيها ؟ ألأنها تحوى تعقيداً وتعصيماً ؟ لقد كان التعقيد والتعصيب يدع هذه العصور ، فما يزال الشاعر يصعب فى فنه ووسائله وأبوابه التى يدخل منها إلى صناعته ، فإذا أبو العلاء يطلب النظم على جميع الحروف ساكنة ومتحركة حركاتها المختلفة ، ولكنه لا يزال يجد سهولة فى الممرات التى ينفذ منها إلى شعره ؛ وإذن فليصعب على نفسه أكثر من ذلك ، وليطلب المجانسة بين القافية وحشو البيت حتى يحدث صعوبة ، لعل أحداً لا يستطيع أن يقلدها فى فنه ، أو يحاكيها فى نماذجها . وكأنى به رأى أن هذه الصعوبة لا تزال فى دائرة الإمكان فحاول أن يدخلها فى دائرة المستحيل قليلاً ، وما تطور الشعر عنده إن كانت وسائله لا يزال يقدر عليها غيره من الشعراء ؟ إن الفن الصحيح فى رأيه هو الذى تتميز وسائله وأدواته بالعسر والمشقة ، فإذا كان يحسن بالشاعر أن يجانس بين القافية وبين لفظة فى البيت فيطلب ذلك فى مكان يتعسر على غيره ولا يتقاد له . كان ذلك يدور بنفس أبي العلاء فذهب يبحث كيف يستحدث فى الجناس صعوبة تبلغ به ما يريد من العسر والمشقة ، وهدهاه بحثه بعد كثير من التجربة والاختبار إلى أن الحيز الذى يستطيع به أن يشق على نفسه وغيره بوضع جناسه فيه هو أول البيت وآخره ، فهو لا يجانس بين القافية وحشو البيت ، فإن هذا الجناس ربما كان لا يزال ممكناً ، إنما هو يجانس بين القافية وبين أول لفظة فى البيت كما نرى فى مثل قوله :

أتراك يوماً قائلاً عن نيةٍ خلصتَ لنفسك يالوججُ تراك<sup>(١)</sup>

أَدْرَاكَ<sup>(١)</sup> دهرُك عن تُقَاك بجهدِه  
فدراكٍ من قبل الفواتِ دَرَاكٍ  
أَبْرَاك<sup>(٢)</sup> ربُّك فوقَ ظهْرِ مطيِّبَةٍ  
سارتْ لتبلغَ ساعةَ الإبراكِ  
أفراكنُ أنا للزمانِ بِمُحْصَدٍ  
بانَتْ عليه شواهدُ الإفراكِ<sup>(٣)</sup>  
أَشْرَاك<sup>(٤)</sup> ذنُبِكَ والمهيمنُ غافرٌ  
ما كان من خطيئِ سوى الإشراكِ

فإنك تلاحظ في هذه الأبيات أن المعرى عرف كيف يصعب طريقه إلى نظم هذه المقطوعة ، فقد ضيق الباب بل الابواب التي يمر منها إلى صناعة البيت ، وأبى إلا أن يظهر هذا التضييق في أول كلمة يبدوه بها ، إذ أقام هذا الجناس المتعب بينها وبين القافية .

لقد كان الشعراء من قبل المعرى يلتزمون رويًا واحدًا في شعرهم ، ولكنه رأى ذلك شيئاً سهلاً ، وهو يريد الصعوبة والتعقيد فاشتراط على نفسه أن ينظم على رويين ، وكأنه أحس بأن النظم لا يزال سهلاً ، فذهب يبالغ في الصورة التي يمكنه أن يعقده فيها ، وما زال يبالغ حتى انتهى إلى هذه الصورة من الجناس بين أول البيت وآخره . والغريب أنه لم يكن يصنع ذلك في بيت واحد أو أبيات متفرقة من مقطوعاته التي يطلبه فيها ، بل ذراه يعمده في جميع أبياتها . وكان إذا جنح إليه في مقطوعة طوّها وتجاوز بها المعتاد حتى يثبت مقدرته ومهارته في صنع هذا « الجناس اللغوي » الذي ما يزال يعقد فيه حتى يخرج على هذا النحو المركب ، فهو يلتزمه في أول البيت وفي آخره ، وهو يسرف على نفسه فيلتزمه في المقطوعات الطويلة أحياناً . وحقاً أن المعرى أسرف على نفسه إسرافاً شديداً حين جنح إلى هذا النوع من الجناس ، ولكن كيف يثبت مقدرته على التعقيد في الشعر إن لم ينزلت إلى هذه الممرات الصعبة يجعلها طريقه إلى شعره

(١) دراك : رفك ، أصله دراك .

(٢) أبراك من البرة وهي حلقة تجمل في أنف

البعير ليزم بها . يقول جعل الله لك عقلا

يمنعك من الشهوات كما تمنع الناقة من البرة .

والمطية يقصد بها الليل والنهار .

(٣) المحصد : الزرع يحصد . الإفراك :

الاشتداد . يقول أتركن وزرعتك قد اشتد وأفرك .

(٤) أشراك : من الشرى ، وهو مرض يصيب

الجلد فيتحقق .

وصناعته ، فقد أصبح الفن صعوبة وتعقيداً خالصين ، وأصبحت مهارة الشاعر أن يصيب في شعره حظاً من هذه الصعوبة أو ذلك التعقيد ، فإذا المعرى يلتبس هذا الجناس الغريب . وأكبر الظن أن خير وصف يمكن أن يضاف إليه أنه « جناس لغوي » ، فقد تحول الجناس عند المعرى عن وجهته الأولى ، وأنه بديع مستطرف ، إلى وجهة لغوية يريد بها الشاعر أن يثبت مقدرته اللغوية في استخدام الغريب من الألفاظ ، وقرأ هذا البيت :

ذَوَى كَالرَّوْضِ رَوْضُكَ يَوْمَ شُبِّتَ جَمَارٌ مِنْ لَطَى أَسْفِ ذَوَاكَ

فقد استطاع أبو العلاء أن يلفق جناساً أشد صعوبة من ضروب الجناس السابقة ، إذ أله من كلمة وحرف في كلمة أخرى ، وكأنه يريد أن يخطو بالشعر خطوة جديدة في سبيل التعقيد ، فإذا هو يجانس بين القافية وبين ذوى الأولى وحرف الكاف التالى لها ، أرأيت كيف أصبح الجناس عند أبي العلاء عبثاً لغوياً لا يراد به شيء أكثر من التصعيب والتعقيد ؟ وهل هناك شيء أطرف في رأى أبي العلاء ومعاصريه من أن يستخرج أحدهم عقدة جديدة في الشعر ؟ بل إنه ليلتزم عقداً كثيرة ، فإذا هو يقيد نفسه في قوافيه ، وإذا هو يرجع إلى ثقافته اللغوية يستمد منها ألفاظه الغريبة التي يستخرج منها هذا الجناس المعقد بين القافية وحشو البيت ، وكأني به يرى ذلك ممكناً فيجانس بين القافية وأول البيت ، ثم يرى أن ذلك لا يزال ممكناً أيضاً ، فيفكر طويلاً حتى يقع على هذا الجناس بين القافية والكلمة الأولى في البيت وما يجاورها من حرف أو حرفين .

وليس من شك في أن ذلك كله كان مباحة لأسلوب الوعظ ، وكأني بالزوميات إنما جاءت لتحدث هذه الصعوبات والتعقيدات في الشعر وما يطوى فيها من شعبي ومنعطفات ؛ أما الوعظ وأما الزهد . فقد كانا يأتیان تابعين لهذا العمل المعقد تعقيداً شديداً ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الزوميات بُنيت بنائة لغة قبل أن تبنى بنائة زهد ، وهل كان المعرى يطلب بلوازمه في قوافيه أو في ألفاظه أن يؤدي حاجة من وعظ ؟ لقد كان يؤدي بهذه اللوازم حاجة لغوية ، فالثقافة اللغوية أهم شيء فكر فيه في أثناء عمل لزومياته .

### اللوازم العارضة في اللزوميات

هذه اللوازم الدائمة في اللزوميات كانت ترافقها لوازم عارضة تظهر من حين إلى حين ، ونقصد بهذه اللوازم العارضة ما كان يَحْنَحُ إليه أبو العلاء من تصنعه لألفاظ الثقافات المختلفة من عروض ونحو وفقه ، ولعله أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون ، ومن قبله كان المتنبى يتصنع لذلك ، ولكنه لم يسرف فيه إسراف المعري الذي ذهب يطرز شعره بألفاظ العلوم والفنون ، بل إننا لنراه يَدْخُلُ مسائلها في آرائه ، وكأنه يريد منها الحججة والدليل على ما يذهب إليه من فكرة أو رأى ، وانظر إليه يستخدم العروض في التدليل على أفكاره فيقول :

إذا ابنا أب واحد أُلْفِيَا      جوَاداً وَعَيْراً فلا تعجِبِ (١)  
فإنَّ الطويل نجيبُ القريضِ      أخوهُ المديدُ ولم يُنْجِبِ (٢)

فإنك تراه يصف أحوال الناس بأوصاف الطويل والمديد ويتصورهم على هذا النحو من التصور العروضي ، فالنجيب طويل وغير النجيب مديد ، أرايت إلى هذا التجديد؟ لقد جمد الشعر العربي ولم يبق فيه إلا هذه الانحرافات التي يأتي بها الشعراء من أوعية الثقافة ، فإذا أبو العلاء يقول :

بقائى الطَّويلُ وغَيَّبى البَسِيطُ      وأصبحتُ مضطرباً كالرَّجَزِ

أرايت إلى حياة أبي العلاء كيف تتحول إلى أوزان العروض ؟ . ولم يكن أبو العلاء يلجأ إلى ذلك ليقرر فكرة الفيثاغوريين عن الكون واثلافة الموسيقى ، إنما هو يلجأ إليه ليشبث معرفته بالعروض ومصطلحاته ، وكأنه المرأة المستقيمة التي يستطيع الفيلسوف أن يرى فيها أحوال الناس مقيسة مقدره على خير ما يكون القياس والتقدير ، ولست أشك في أن أبا العلاء كان يعجب إعجاباً شديداً بهذه الآلة الحديدية التي عثر عليها والتي يقيس بها أحوال الناس والحياة ، ويظن

(٢) يقصد بالنجاة هنا كثرة الاستعمال .

(١) العير : الحمار .

أنها تفسرها ! ، وأكبر الظن أنه كان يعرف عجزها وأنها لا تستطيع ذلك ، ولكنه يلجأ إليها ليحرز انتصاراً جديداً في تعقيد الفن وتصعبه .

وليست اصطلاحات العروض فقط هي التي يمكن أن تفسر مشاكل الحياة ، بل تشتركها اصطلاحات أخرى من النحو والصرف ، وانظر كيف يفسر الصلة بين الأصول والفروع تفسيراً صرفياً فيقول :

وفي الأصل غشٌّ والفروعُ توابعٌ وكيف وفاءُ النَّجْلِ والأبُ غادرُ  
إذا اعتلتُ الأفعالُ جاءتْ عليةً كحالاتها أسماءُها والمصادرُ

فالأصول والفروع وما بينهما من وراثات ، كل ذلك نستطيع أن نجد له تفسيراً لا في الفلسفة ، بل في الصرف ، فالأفعال إذا كانت عليلة تبعها مشتقاتها لا نستطيع حولاً عنها ولا خلاصاً منها ، وعلى هذا النحو تتبع الفروع الأصول ، إن كانت سلكية سلمت ، وإن كانت معتلة اعتلت ، أ رأيت إلى الصرف كيف يمكن أن نستخرج منه تفسيراً وتصويراً لمشاكلنا ؟ إنه أحد المفاتيح الصغيرة التي عثر عليها أبو العلاء وجاء يستخرج منها وصف أحوالنا ، وليس الصرف فقط هو الذي نجد فيه هذه المفاتيح ، بل إننا نجدها كما رأينا في العروض ، ونجدها أيضاً في النحو ، وانظر إليه إذ يقول :

سرٌّ سيعلنُ والحياةُ مُعارةٌ ولتُقْضَيْنَ بها ديونُ المعسرِ  
كخبيةٍ نعمَ وبئسَ يُخْبَأُ فيهما ويكونُ ذاكَ على اشتراطِ مفسرِ

أ رأيت إلى حقائقنا ؟ إننا لا نتشابه فيها فقط ، بل إننا نتشابه فيها مع مسائل النحو والعروض والصرف ، وليس من شك في أن هذا الصنيع لا يضيف طرافة للشعر إلا عند أصحاب هذه الفنون ، وهل حقاً يمكن أن تفسر هذه الفنون ومصطلحاتها مشاكلنا ؟ إنها مملوءة بكثير من المشاكل التي تحتاج هي الأخرى إلى ما يفسرها ! .

ومهما يكن فإن أبا العلاء غلا غلواً شديداً حين جعل هذه المعارف لوازم في شعره وإن تكن لوازم عارضة تأتي من حين إلى حين . قد نفهم أن يبالغ

في التشديد على نفسه فيصطنع منهجاً جديداً في قوافيه يعقد به موسيقاه ، ولكن لا نستطيع أن نفهم هذا التصنع لاصطلاحات النحو والصرف والعروض ، وكان يلحُّ في طلبه إلحاحاً شديداً . أليس يدل ذلك على أن التفكير الفني لم يعد يدخل فيه شيء طريف وأن الشعراء قد أحسوا إحساساً ما بإجدابهم ، فانطلقوا يتكلفون في شعرهم هذه الكلف التي لا تفصح عن جمال فني سوى هذا التعقيد الذي يَدْخُلُه الشعراء من ممرات وأبواب كثيرة ، تارة من ممرات موسيقية معقدة وتارة من أبواب بديعية ملفقة ، وأخيراً من هذه المسالك العلمية التي لا تضيف طرافة إلى الشعر أكثر من ذكر بعض الألفاظ وبعض المسائل والمصطلحات ، ومع ذلك فقد كانت هذه المسالك تُعَدُّ بدءاً طريفاً في القرن الرابع وما تلاه من قرون ، وأخذ أبو العلاء يوسِّع استخدامها ، فهو لا يقتصر بها على ما مضى من فنون ، بل هو يطلبها أيضاً في الفقه والدراسات الدينية ، فإذا هو يقول :

حيرانُ أنتَ فأىُّ الناسِ تتبَعُ      تعجى الحظوظُ وكلُّ جاهلٍ طَبَعُ<sup>(١)</sup>  
والأمُّ بالسُّدسِ عادت وهى أرفُ من      بنتٍ لها النصفُ أو عرسٍ لها الرُّبْعُ

فإنك تراه يخلط مسائل الدين الخاصة بتشاؤمه وما يرى في الحياة من مشاكل تؤديه إلى الشك والحيرة . وعلى هذا النمط ما يزال أبو العلاء يتعرَّضُ في اللزوميات لمسائل العلوم والفنون المختلفة يتخذ منها الحجج والأدلة على ما يزعمه من أفكار وآراء ، ولأنه ليكثر من ذلك كثرة مفرطة ، حتى ليحس من يقرأ في لزومياته بأنه يقرأ في كتاب ثقافة لا في ديوان شعر . ولقد كان حرياً به أن ينحى عن شعره هذه القيود الثقافية العارضة ، ويكتفى بقيوده الدائمة السابقة ، ولكنه يريد أن يصعب عمله وأن يسلك إليه أضييق الممرات والأبواب ، فإذا هو يلتزم ما لا يلزم مراراً ، مرة في حروف قوافيه وحركاتها ، ومرة في ألفاظه الغريبة ، ومرة في جناساته المعقدة ، وأخيراً في هذه اللوازم العارضة ، حتى ليصبح الشعر لوازماً خالصة .

(١) الطبع : اللثم .

وعبث أن نبعث بعد ذلك عن جديد في الشعر ، فقد اندفع الشعراء بعد أبي العلاء في هذه الممرات الضيقة ، كما نجد عند الحريري وعند غيره من الشعراء ممن وقف عندهم صاحب معاهد التنصيص يروي لهم مقطوعات تُقرأ طرداً وعكساً ، أو يلتزم الشاعر فيها الحروف المهملة أو الحروف المعجمة إلى غير ذلك من عبث لا يفيد الشعر شيئاً<sup>(١)</sup> وكأني بالشعر العربي ارتفع به العباسيون إلى القمة ثم أخذ يسقط رويداً رويداً ، فإذا هو قصائد تلفق تلفيقاً ، ولما احتوت جمالاً من زخرف أو فكر . وحتى ألوان التصنيع القديمة أصابها ما أصاب لون الجناس عند المعري ، إذ تحولت إلى صور هندسية ، قلما يجد الإنسان فيها طرافة إلا تعقيداً يقضى على كل ما يبعثه الشعر من لذة شعرية أو متعة فنية .

(١) معاهد التنصيص ١٠٢/٢ وما بعدها .